مقدمة عامة

هذه المجموعة من أربعة مجلدات هى فى الواقع كتاب واحد، موضوعه حرب الثلاثين سنة، وتلك هى الفترة الواقعة بين سنة ١٩٥٥ (حين خرجت مصر تقاوم إنشاء حلف بغداد باعتباره طوقا يقيد شعوب الأمة ويربطها بهيمنة الغرب تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية) ـ وحتى سنة ١٩٨٥ (حين وقعت مصر اتفاق فك الاشتباك الثانى مع إسرائيل تحت إشراف ورعاية الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذلك تأكيد أنه صلح منفرد مصرى ـ إسرائيلى، وكذلك تبدّلت الأحوال وتغيرت التوجهات).

وفى تلك السنوات الثلاثين الحافلة (من سنة ١٩٥٥ وحتى ١٩٨٥) ـ خاضت مصر ومعها شعوب الأمة العربية ـ ثلاث حروب مسلحة مع إسرائيل: حرب السويس سنة ١٩٥٦، وحرب سيناء سنة١٩٦٧، وحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، وكانت هذه الحروب المسلحة هى الذرى العالية المشتعلة بالنار لذلك الصراع ضد حماقة القوة الإسرائيلية ووراءها خطط الهيمنة الأمريكية.

وعليه فإن هذه الكتب الأربعة تتابع تلك السنوات الثلاثين، وتوثق لها، وتستعيد بالتفصيل وقائعها، وتتعرض للمواقف ودخائلها، وتتحرى أدوار الرجال إلى أبعد حد ممكن من الاقتراب، وكانت عناوين هذه المجلدات الأربعة:

١ ـ ملفات السويس (من ١٩٥٥ إلى ١٩٥٧).

٢ ـ سنوات الغليان (من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٦).

٣ ـ الانفجار (من ١٩٦٦ إلى ١٩٦٧).

٤ ـ أكتوبر: السياسة والسلاح (من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ وإلى سنة ١٩٨٥).

وكذلك فإن هذه المجلدات تروى قصة واحدة ـ كاملة ـ ممتدة على مساحة هذا العدد من السنين.

□ □ □

كانت تلك السنين فترة لها مواصفات وخصائص فريدة:

○ كانت تلك فترة ظهور ونهضة دول العالم الثالث التى قادتها الصين والهند ومصر، ابتداء من مؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥، حتى وقع انقضاض الاستعمار، بانقلاباته الخفية، أو بحروبه السافرة أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات ضد تمرد العالم الثالث على خط يمتد من إندونيسيا إلى غانا.

○ وكانت تلك فترة شهدت أحوال يقظة إنسانية حية طول الوقت ومتدفقة عبّرت عنها سياسة عدم الانحياز التى قادتها مصر والهند ويوجوسلافيا، وكانت شعوب الأمة العربية أيامها مالكة لإرادتها، ممارسة لتجربتها مع الحرية تقدما وتراجعا، وكانت لاعبا على الساحة الدولية بين اللاعبين، ولم تكن تحولت بعد إلى كرة فى الأقدام تركلها من جديد إلى بعيد كلما وصلت إليها.

○ وكانت تلك فترة استوعبت مصر فيها دورها ومارسته، عارفة كيف تفرق بين الدور وبين الوظيفة، فالدور تعبير أصحابه عن حقائق وجودهم، والوظيفة تكليف من الغير عن حقائق أخرى.

(ومن المدهش أن الهجمة الأمريكية الأولى على العالم العربى بدأت بغواية سياسة الأحلاف العسكرية بالعراق سنة ١٩٥٥، بمقولة التصدى لخطر الاتحاد السوفيتى، والاستعداد لعدوانه، وكان ذلك إطار حلف بغداد الذى قادت مصر حملة المقاومة عليه، وواصلتها حتى سقط حلف بغداد فى بغداد نفسها.

ثم إن الهجمة الأمريكية الأخيرة على العالم العربى انقضت بسطوة الغزو المسلح على العراق سنة ٢٠٠٣، والانقضاض هذه المرة بمقولة التصدى لخطر الإرهاب وتوقيا لضرباته.

وكانت الأمة تتفرج على المشهد - ولا تزال - وكأن العراق إقليم فى كوكب هناك فى فضاء الكون السحيق!).

□ □ □

هناك بعد ذلك اعتبار إضافى، مؤداه أن تلك السنوات الثلاثين كانت بالنسبة لى شخصيا سنوات الشباب، أو لعلها هضبة أواسط العمر، وكان عليها دخولى إلى دور نشيط فى الشاغل السياسى العام، إلى جانب انهماكى فى العمل المهنى الأصيل، ففى تلك السنوات من تاريخ مصر والأمة، كان لدىّ حظ أن أكون قريبا من «جمال عبد الناصر» حتى الساعة الأخيرة فى حياته سنة ١٩٧٠، وقد تحاورنا طويلا ولم نفترق، ثم كان لدىّ حظ أن أكون قريبا من «أنور السادات» حتى انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقد تحاورنا طويلا ثم افترقنا، وتباعدت بيننا الطرق مع اختلاف رؤانا لدور السياسة بعد دور السلاح فى حرب أكتوبر.

وهكذا فإننى إلى جانب المتابعة المهنية تواجدت فى أجواء ووقائع حرب الثلاثين سنة بالمعايشة وليس فقط بالمتابعة، ومن الداخل وليس فقط من الخارج، وإذن فإن المناخ ما زال دافئا من حولى - حاضرا حيا - متحركا ناطقا، وكأن عدسة تصوير أمسكت بالحوادث واللحظات والتقطتها وسجلتها على ذاكرة شريط حساس ومأمون.

ومن الحق هنا أن أقرر أن الطبعة الأولى من هذا الكتاب الواحد من أربعة أجزاء صدرت عن «الأهرام»، وذلك عندما بادر رئيس تحريره ومجلس إدارته الصديق الأستاذ «إبراهيم نافع» إلى طلب حقوق تلك الطبعة من دار «أندريه دويتش» و«هاربر كولينز» فى لندن ونيويورك، وكانت حفاوة الأهرام ومركز النشر والترجمة التابع له - وفيه أيامها تلك الصديقة الغالية الراحلة «نوال المحلاوى» - حفاوة بالغة.

□ □ □

إلى جانب ذاكرة الشريط الحساس والمأمون كانت هناك محاولة ذهبت بعيدا فى التوثيق، لأن الصورة إذا لحقت بالوثيقة تأكدت الرواية دون أى ظن أو التباس. وعند

هذه النقطة فإن قضية الوثائق تستحق هنا وقفة، ذلك أن كثيرين - بينهم عدد من الأصدقاء - أثاروا مسألة احتفاظى بصور من وثائق سياسية هامة وصلت إلىّ بذلك القرب من «جمال عبد الناصر» أو من «أنور السادات» بعده، وكنت ذكرت أننى أحتفظ بجزء من هذه الوثائق خارج مصر حماية لها وصونا، وراح كثيرون يطالبوننى بإعادة هذه الوثائق، دون أن يتذكروا أن جزءا كبيرا من هذه الوثائق عاد ونشر فعلا فيما صدر من كتبى فى السنوات الأخيرة، وبالتالى فإن ذاكرة مصر فيما يتعلق بما كان لدىّ محفوظة ومصانة، موجودة - بجزء كبير منها - ومنشورة فى سياق حرب الثلاثين سنة وغيره من الكتب، وقد أشير إلى ما ذكره المؤرخ الصديق الدكتور «يونان لبيب رزق» - من أن كثيرين أخذوا علىّ كثرة ما نشرت من نصوص وصور من الوثائق، وقد بلغت قرابة الألف صفحة ضمن الأجزاء الأربعة فى مجموعة حرب الثلاثين سنة، وزاد عليها قرابة ألف صفحة أخرى من الوثائق منشورة فى كتب: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - والعروش والجيوش - وخريف الغضب. والحقيقة أننى قصدت إلى عرض الوقائع والأجواء، دون الاكتفاء بقول «إننى كنت هناك»، والقصد أن أضيف إلى ذلك دليلا لا يقبل الشك - على صدق الرواية ودقة المشاهد.

ومؤدى ذلك أن ما عندى من الوثائق ليس محجوبا، وإنما هو منشور ولا يزال يُنشر، وأنه فى متناول اليد وتحت النظر.

لعلى أذكر أيضا ما أشار إليه بعض الأصدقاء عن شريط مسجل لحديث طويل مع «حسن يوسف» (باشا) الذى كان وكيلا ورئيسا للديوان الملكى (يزيد طوله عن خمس عشرة ساعة)، وما أريد توضيحه هنا أن هذا الشريط جرى تسجيله سنة ١٩٧٧، أى بعد خروجى من الأهرام بثلاث سنوات، وبالتالى فهو ضمن محفوظاتى الخاصة ولا صلة له بغيرها، فقد جرى تسجيل هذا الشريط فى بيتى الريفى فى برقاش، وبمحض مصادفة ليس عن تصميم مسبق، فقد كنا هناك ذات يوم فى شهر مارس من تلك السنة ومعنا صديقه وصديقى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) الذى كان سفيرا للعهد الملكى فى لندن، ودار الحديث بيننا عن عصور مضت، وتدفقت

الذكريات، واقترحت تسجيلها، ووافق الصديقان، بشرط أن يظل التسجيل فى حوزتى، لا يخرج لأحد إلا بعد عدد من السنين.

وإلى جانب ذلك فإن أهم ما عندى هو مجموعة أوراقى الشخصية التى سجلت فيها بخط يدى ما رأيت وما سمعت، وهى شبه مفكرات - وليس مذكرات - كتبتها كى لا أنسى حين الحاجة إليها لتوثيق السجل، أو حين يحين أوان الكتابة والنشر، وفى كل الأحوال فإن هذه الأوراق الشخصية ذاكرة رجل وليست ذاكرة وطن.

ومن الأنسب أن أزيد على ذلك أن الأصول من وثائق التاريخ المصرى الحديث وضعت بكاملها تحت تصرف لجنة كتابة التاريخ سنة ١٩٧٥، وقد قام عليها فى ذلك الوقت نائب الرئيس «حسنى مبارك» (وهو الآن رئيس الجمهورية)، وكان مقر تلك اللجنة ومجمع أوراقها ووثائقها ومحفوظاتها قصر عابدين، حيث يوجد النصيب الأكبر من وثائق مصر الحديثة.

أردت أن أضع هذه الملاحظات جميعها فى هذه المقدمة العامة لحرب الثلاثين سنة توضيحا وبيانا.

□ □ □

وأخيرًا أعترف أننى لا أجد حرجا فى القول بأن مجموعة حرب الثلاثين سنة مكتوبة بالدرجة الأولى لأجيال جديدة من الشباب فى مصر وعلى اتساع الأمة، فهؤلاء لم يكونوا معنا حين كنا هناك، ثم إن الأهواء والأغراض تلاعبت، قاصدة وعامدة، وطمست الحقائق، وحكت بدلا منها ما يغطى عليها أو يشوه وجهها، لأنه كان مطلوبا - ولايزال - تغييب الذاكرة العربية، واغتيال الوعى والهوية، لكى يمكن تطويع المستقبل وتوجيهه بسهولة على هوى وأغراض الآخرين، ولذلك فإن هذه الأجيال من الشباب هى بالدرجة الأولى هدفى ومقصدى، فهى - وليس غيرها - حاملة المسئولية - والسائرة بها على دروب الغد، واصلة به - متنبهة ويقظى - إلى أهدافه وأهدافها!

محمد حسنين هيكل